المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٦٥٧ - السنة ٥٧ - رمضان ١٤٣٩هـ - حزيران ٢٠١٨ م

السوريون والثقافة

أخلاقيات المهنة الصحفية

ما تحمله لنا حضارة الموجة الثالثة

تقنية النانو وآفاقها المستقبلية

كتاب الشهر

المسلوب

جنكيز أيتماتوف

لوحة للفنانة لينا ديب

آفاق المعرفة

يوسف المسمار الشاعر المهجري والانتماء القومي

إياد مرشد

يوسف المسمار شاعر مهجري يعيش في المهجر جسداً، ويعيش فيه الوطن روحاً وجوهراً، لم تُنسه سنوات الهجرة الطويلة وآلام الغربة ومشاقها قضايا وطنه وأمته، خرج من لبنان شاباً مطلوباً للسلطات في ستينيات القرن الماضي، وانتهى به المطاف في ولاية كورتيبا البرازيلية. لم تكن الغربة سبباً في انشغاله عن وطنه، بل كانت حافزاً له ليعيش همومه وقضاياه، وعلى الرغم من البعد الجغرافي ومرور السنين بقي مخلصاً للمبدأ والانتماء السياسي الذي كان وراء خروجه من وطنه لبنان، بل إن الغربة جعلته أكثر تماساً والتصاقاً بمشكلات وطنه.

وفي زمن عزّت فيه الأخلاق والقيم بقي يوسف المسمار يكتب قصيدة تنشد المثل العليا والقيم الأخلاقية... والتي رأى فيها المعبِّر الحقيقي عن الوجود الإنساني بدلالاته السامية. ويكاد يكون الالتزام العقائدي المرتكز على إيمانه القومي العلامة الأبرز في شعره، هذا الالتزام الذي شبّ عليه، ولوحق من أجله، وطار إلى آخر العالم فداءً له.

ليس هو بشاعر غزل أو وصف، وليس هو بالشاعر الذاتي المنغلق على نفسه مكتفياً ببث لواعجه وخيباته وصدى أعماقه، بل هو شاعر قيم وأخلاق والتزام...يمارس الانتماء عقيدة وعملاً، ويعبر بالشعر عن فكر واثب نحو العلا وتطلع لاستعادة مجد الزمان الغابر الذي ضاع بسبب الاستعمار والجهل والتخلف الذي عاشته أمته منذ قرون.

- ولد في (٥/٤/١٩٤٣م) في مدينة الهرمل - لبنان.

- أتم دراسته الإعدادية والثانوية والجامعية/كلية الحقوق/ في بيروت.

- شارك في مهرجان الشعر في الجامعة اللبنانية- قاعة الأونيسكو (١٩٦٤م).

- هاجر إلى البرازيل عام (١٩٦٥م).

- شارك في تأسيس جمعية الدراسات العربية- البرازيلية في كورتيبا- البرازيل.

- شارك في الاجتماع التأسيسي لاتحاد الجمعيات العربية ـ الأمريكية (فياآراب) في البرازيل.

- شارك في تأسيس عصبة الأدب العربي المهجري في البرازيل وعمل مديراً للإعلام فيها ومازال.

- عمل مديراً لتحرير جريدة الأنباء في سان باولو خلال المدّة ما بين (١٩٧٦-١٩٧٩م).

من كتبه المطبوعة:

- مجموعات شعرية: لهب النهضة - قصائد للنهضة- قصائد مضيئة - قطرات من نور (صدر في دمشق) - على مشارف النور - نوافير نور /وسواها من القصائد التي ألقاها في مناسبات مختلفة أو نشرها في الصحف والمجلات.

- قاموسان: / البرتغالي- العربي/ - / العربي- البرتغالي/.

- له مجموعة من الكتب المترجمة إلى البرتغالية مثال كتاب «نشوء الأمم» لأنطون سعادة.

- له مجموعة كبيرة من المقالات والدراسات الأدبية والسياسية المنشورة في الصحف والمجلات.

ويقف كل مهتم بشعره أمام السؤال الدائم الذي شغل النقد الأدبي حول وظيفة الشعر ودوره، حيث إن المسمار يتخذ من الشعر منبراً سياسياً وأحياناً منبراً للوعظ الاجتماعي والأخلاقي، وهذا يتقدم أحياناً كثيرة عنده على معالم الشعر الأخرى، من حيث إنّه رسم للعالم بلغة جمالية خلاقة مرتكزة على الصور والإيحاء وحسن السبك مابين المفردات وتآلفها مع العبارات المشكلة للنص الإبداعي، والتناغم مابين الشكل والمضمون.

في شعره شاعر إشكالي، فالقارئ لشعره يقف عند شاعر لا يهادن، بل تراه صلباً وأحياناً قاسياً تجاه كل مظاهر الضعف التي تغلف أمته والتي تحيط بظروفها.

فها هو يتحدث عن شعره فيقول:

شعري أشعةُ إحساسي بمجتمعي والناس طراً، أرى في الشعر منُتجعي
أسابقُ الضوءَ والأنـوارُ تتبعني كأنما النورُ غيرَ الشعرِ لم يُطعِ

والشعر لديه ليس من إرهاصات الشياطين، بل يسقط إليه من ملائكة الشعر التي باركتها روح الله.

ملائكُ الشعرِ روحُ اللهِ باركها دونَ الشياطين، في الأعراف والشرعِ

والشعر لديه مرتبط بالضوء والأنوار والارتقاء نحو الأعلى.

شعري من الحُسنِ أضواءٌ بها اتسعتْ إشراقةُ النفسِ فوقَ الفوقِ والوُسُعِ

فالشعر عنده حالة من السمو والارتقاء، وارتباطه بالضوء إشارة إلى الدور التنويري الذي يبتغيه الشاعر لشعره. ويؤكد في قصيدته (أجود الشعر) إلى ما ذهبنا إليه:

ميزة الشعر أن يكون انطلاقاً مستمراً، يُمجِّدُ الناسُ شانهْ
فيثير النفوسَ بالحقِّ حتى يبلغَ الجيلُ رُشدَهُ واتزانهْ

أما وظيفة الشعر عنده فتتلخص بما قاله هنا:

قَدَرُ الشعرِ أنْ يكونَ ويبقى يُوقظ الشعبَ مستثيراً كيانهْ
ليسَ حُراً مَنْ شعبُهُ في المآسي مستهاناً، ولا يزيلُ الإهانهْ
وإذا الشعرُ لم يكنْ نهرَ نورٍ في المُلمّاتِ أدركتهُ الخيانهْ

أما غاية هذا الشعر فهي الشعب أولاً وأخيراً:

إنَّ شعرَ الحياةِ فكرٌ مُضيءٌ جاوزَ الشرعَ، قد تخطى زمانهْ
في سماءِ النبوغِ ينسابُ نوراً يُنعشُ الخلْقَ روعةً ورصانهْ
أفصحُ الناسِ شاعرٌ لم تفارقْ حالةُ الشعبِ قلبهُ ولسانَهْ

ولم يتوانَ بعد ذلك أن يقدم لنا تعريفه للشعر:

الشعرُ دنيا مع الأيامِ تتسعُ من مفرق الشمس تُستجلى وتنقشعُ

ويُلمحُ اللهُ عبرَ الشعر أغنيةً ... في هيكل النور والآفاقُ تستمعُ
أبعادهُ الضوءُ منثوراً على قمم ... ينسابُ كالفجر يستعلي ويرتفعُ
الشعرُ في العمقِ عرفانٌ وعبقرةٌ ... بالحسِ والعقلِ والإبداعِ يُخترعُ

وبعد ما رأيناه من حرص الشاعر على تقديم رؤيته للشعر وظيفة وغاية وتعريفاً، فإن ذلك يقودنا إلى الخوض في المحاور الرئيسة التي تمحور حولها شعره والتي يمكن تحديدها بما يأتي:

أولاً: الالتزام العقائدي للشاعر:

لا أدري إذا كان هذا الالتزام السياسي الكامل للشاعر بحزبيته والتي ضمّنها في كثير من جوانب مجموعاته الشعرية يحسب له أو يأخذ عليه، وهل الشعر هو نص أيديولوجي يغلفه الشاعر بأجواء القصيدة من لغة وموسيقا... إلخ.

هل يمكن للشعر أن يروض لمصلحة المضامين السياسية والعقائدية؟! والاكتفاء بمحدودية آفاقها زمنياً... وطبيعتها الصارمة حيناً متغيراتها كثرة في أغلب الأحيان؟ هل الشعر قادر على أن يصبح جزءاً من الخطاب السياسي؟

الحقيقة المعروفة عن الأدب عامة والشعر خاصة أنه عصي على الترويض، فالشعر يمكن أن يعبر عن موقف وطني أو أن يتناول الحدث السياسي، لكن كمتكئ للدخول في عوالم الشعر الرحبة القائمة على أنه فنٌ وابتكار ورؤيةٌ وإبحار في فضاءات الدهشة والاختلاف عن السائد والتقليد. في حين تحرص لغة الخطاب السياسي على التقريرية التامة والصياغات المتماسكة والقوالب ذات الطبيعة المقيدة إلى حدٍ كبير.

ولكن شاعرنا أراد من شعره أن يكون رسولاً لمبادئه ومعبراً عن شغفه بفكرٍ سياسي له حضوره في الوطن والمغترب. وأحياناً هذا الانتماء لديه يتداخل مع حبه لوطنه الذي تربى على عشقه فآمن به انتماء وطنياً وأخلص له انتماء سياسياً.

إن ارتباط الشاعر بعقيدته السياسية تكاد تنضح به معظم مجموعاته الشعرية، بل يكاد يكون هذا الانتماء ديدن شعره.

يقول في قصيدة (درب الحياة) معاهداً سورية على بذل الغالي والرخيص في سبيل رفعتها وعزها:

يا سوريا العهدُ في أعناقنا قسمٌ ... لبيكِ لبيكِ لم يخمدْ بنا القَسمُ
لو مزّقونا ولم يسلمْ سوى قبسٍ ... من روحكِ السمح يبقى النصر يبتسمُ
منكِ الدماءُ التي فينا ونبذلُها ... إن شئتِ بالطوعِ كالأمواجِ تلتطمُ
لا يَسلمُ الحقُ إلا بالفدى أبداً ... والجهدِ حتى يزول الظلمُ والظُلمُ

ويتحدث عن غاية هذا النضـــال المتمثل في إعادة إحياء الأمة من غفوتها وإعادتها إلى النور.

إلا أن هذا الانتماء السياســي للشــاعر جعله أسـيراً له، فنَذَر له جلَّ شــعره ومنحه كل اهتمامه، ودار حوله على مدار عقود، وفضيلة الشاعر في ذلك صدق انتمائه، ومثلبته أنه لم يخرج من تحت هذه الخيمة باحثاً عن شخصــيته كشاعر في إطار موضوعات أخرى ورحاب أوسع في دوحة الإبداع الشعري الذي تقزّمه السياسة في كثير من الأحيان وتضيّق عليه.

ثانياً: الالتزام بقضايا وطنه وأمته:

تماهى الشــاعر مع قضــايا أمته على الرغم من البعد الجغرافــي عنها وظروف الغربة ومعاناتها، وهذا الصــدق في الالتزام نابع من التزامه السياسي ومن تجربته الشخصية التي عاشها، فهو رجل انتماء، وقد دفع ثمن هذا الانتماء ملاحقة من الجهات الأمنية في بلده لبنان في ستينيات القرن الماضي أولاً، وغربة وبعداً في المغترب ثانياً.

وهذه الظاهرة لا تقتصــر على شاعرنا بمفرده بل تكاد تكون قاسماً مشتركاً بين معظم شــعراء المهجر، فقد رافقهم الوطن حباً وانتماءً، فعاشــوا قضــاياه وتألموا لألمه وغنوا لفرحه. وهو كواحد من شــعراء عصــبة الأدب العربي كان مخلصــاً لمــا دأبت عليه هذه المدرســة الشعرية أسوة بشعراء العصبة الأندلسية، حيث إن كلتيهما اتخذتا من سان باولو مقراً لهما وكان الهم الوطني والقومي محركاً لمواقفهم وأشــعارهم (صدر شعراء العصبة الأندلسية عن اتجاه واقعي يبلغ في كثير من الأحيان حد الالتزام في معالجة قضايا العرب المصــيرية ومعضــلاتهم الاجتماعية يحدوهم في ذلك إيمان عميق بســمو الرسالة التي يحملونها وجلال الغاية التي يبشــرون بها. وكانت ســمات الحدة والتطرف طابع كثير من هذا الشــعر الواقعي الذي انصــبَّ دونما هوادة على ما استقر في عقلية الأمة من رواسب اجتماعية أو دينية).

ولسورية في نفسه المكانة الأرقى فهي مهد الإنسانية، وأهلها أهل الفدى والكرامة، ومما جاء في قصيدته «دروب النهوض»:

هيَ سوريا مهدُ التأنسنِ والهُدى ... إلا بها أُفقُ النُهى لا يُلمسُ
أبناؤها أبداً لأجلِ سلامِها ... وشموخِها بدمائهمْ لمْ يبخسوا
يتنافسونَ إلى الفداءِ لأنهم ... غيرَ الكرامةِ قبلةً لم يأنسوا

وسورية عنده ليست بلداً عادياً، إنها وطن المعرفة والحضارة الإنسانية، يقول في قصيدة في العزم والإقدام أصلُ المنطقِ.

لولاك سوريّا المعارفُ ما نَمتْ ... وتطورتْ، وشموسُها لم تُشرقِ
لولاك ما ارتقت الحضارةُ باكراً ... وحروفُ أنوارِ الهُدى لمْ تُخلَقِ

وللبنان مكانته في وجدانه فهو يرتبط في مخيلته بالجمال والإبداع، وخلود لبنان ينبع من روح التمرد التي تربى عليها أبناؤه:

لبنانُ عزكَ في الخلودِ مُؤكَّدٌ ... مادامَ فيكَ على الخمولِ تَمَرّدُ
فإذا انطفتْ روحُ التمرّدِ وانتهت ... لاشيءَ فيكَ من الإباءِ مُخلّدُ

ولبنان الذي واجه العدوان الإسرائيلي، ووقف أمام طغاة الصهاينة كان حاضراً في شعره، فها هو يؤكد استحالة خضوع تراب لبنان للصهاينة وجنرالاتهم:

ترابُ لبنان يا «باراك» ممتنعٌ ... عن كل نارٍ، ولن يرتابه الجزعُ
ما كانت النارُ للأحرارِ مُرعبةً ... بل يُخمِدُ النارَ منْ أسبابها اقتلعوا

والقدس الراضخة تحت الاحتلال الإسرائيلي الغاشم كانت حاضرة في وعي شاعرنا، فالقدس لم ترضخ إلا بسبب تراخي العرب وقبولهم بالذل والهوان، ومما جاء في قصيدة «نداء القدس»:

صاحتْ بنا القدسُ ما للأهلِ قد ذُهِلوا ... واستعذبوا العيشَ بالإذلالِ وابْتُذِلوا
أصارَ في اللهوِ ما يُرضي مطامحَهم ... أم صارَ في النومِ ما يشفي الألى خملوا
ماذا دهى الأهلَ حتى ضَلَّ معظمُهمْ ... دربَ الكراماتِ واستهواهُمُ المَلَلُ

والشاعر لا يترك مناسبة إلا ويحضُ فيها العرب على اليقظة وضرورة التبصر بما يحاك لهم، ويدعوهم لنفض ثوب الخنوع والاستكانة:

يا أيها العرب استفيقوا لم يعد — للنومِ وقتٌ فالتخاذلُ مُرعبُ
ما كان في النومِ الخلاصُ لخاملٍ — أبداً، وحظُ الخاملين الأعطَبُ

وهموم الأمة رافقت شاعرنا ولم تغب عنه الحرب الأمريكية على العراق، فها هو يخاطب بغداد أرض الحضارات ويشد من عضدها في مواجهة آلة الغزو الهمجي الأمريكي:

بغداد، بغداد أم المجدِ ما خضعت — بالقهرِ يوماً لشذاذٍ من اللَّممِ
خزي الطواغيتِ حتمٌ ثابتٌ أبداً — مهما استعانوا بأشرارٍ من الأممِ
أرض الحضاراتِ لن يطفي مشاعلها — من يعبدُ المالَ مطبوعاً على النَّهمِ

كما أن شـــاعرنا هاجم الخيانة والغدر بالوطن، واستنكر كذلك استسلام الشعب للخرافة وقبوله بالهوان. يقول في قصيدة «بالصدقِ دربُ الانتصار يُواصَلُ»:

ما قيمةُ المرءِ الخؤونِ لشعبه — بالغدرِ يعملُ بالنفاقِ يُخاتِلُ
ما قيمةُ الشعب المُعاق بروحه — بخرافةٍ بين المقابرِ خامِلُ

وأهم ما في هذا الشعر وقوفه إلى جانب وطنه ككل ورفضه الشرذمة والتجزئة والعصبيات الطائفية والدينية، يقول في قصيدة «صَعالكُ الدين»:

ماذا دهاكمْ بني شعبي بني وطني — حتى انكفأتمْ عن التاريخِ والزَّمَنِ
هلْ أصبحَ الحبُّ في الإنجيلِ مثلبةً — أم أصبحَ البرُّ في القرآنِ كالضَّغنِ
تُهْتُمْ عن الحُبِّ لا شيءٌ يوحّدكمْ — في حَوْمةِ الويلِ إلا أقبحُ السّنَنِ
أحقادكُمْ صار في إعلانها شرفٌ — يا بئس من سارَ بالأحقادِ والفِتَنِ

فالدين من وجهة نظره ليس تفرقة وخضـــوعاً للظلم والقهر، بل يجب أن يكون قوة دافعة للحقيقة والمعرفة والفهم، ومن ذلك قوله في قصيدة «الدينُ بالعز يُنجي من به اعتصما»:

وأصدقُ الدينِ فعلٌ دافعٌ أبداً — للفهمِ والكشفِ لا يرضى بما بَهُما
وأجملُ الدين إيمانٌ حقيقته — أن يسلمَ العقلُ بين الناس مُحتَرما

وأروعُ الدين بالتحرير معرفةٌ تُهاجمُ الظُلمَ مهما اشتدَ واضطرمَا
وأعدلُ الدين أحرارٌ عقيدتهُم أن يقهروا البغيَ والبطلانَ والصَّمما

ويرفض الشاعر التبعية العمياء في الدين لأن أساس أي عبادة هو التنوير:

تبقى الدياناتُ تنويراً لو اتُّبعَتْ بالرُشدِ والفهمِ لا بالغيِّ في التَّبعِ

وهذا الموقف من الدين يعبر عن سعة في الأفق، ورفض لدور الدين القائم على التجهيل والتبعية وبث الفرقة، فالدين هو لله ومن ثمّ أي محاولة لاستغلاله خروج عن شرع الله، والشاعر يعرف ما للعقائد الدينية من تأثير في مجتمعاتنا الشرقية لذلك فهو لا يرفضها، بل يرى أن أهميتها تنبع من قدرتها على خلق الانسجام والوحدة في المجتمع وبث الحب والمودة بين أتباعها.

وهذا الالتزام بقضايا أمته جعل منه شاعراً نهضوياً قومياً، إذ اقترن لديه القول بالفعل فكان حريصاً على المشاركة في كل حدث ألم بوطنه، ساعياً لفتح طاقة نحو المستقبل الذي بالعمل والجد واليقظة يمكن رسم ملامحه المشرقة المستندة في جذورها إلى عمق حضاري للأمة مغرق في القِدَم:

وبيقظة التاريخ فينا ينتهي عهدُ الخمولِ، ويبدأ التدوينُ
وتعودُ «سومرُ» للحضارة منبعاً وتعودُ تحضنُ بَحرَنا «صيدونُ»
وتعودُ «أوغاريتُ» صبحاً مشرقاً بحروفِها يتمجَّدُ التلقينُ
وتطلُّ من خلف الغياهب «نينوى» ويهبُّ مُختصر المدى «سرجونُ»
فنعيدُ تعليمَ المسيحِ وأحمدٍ، وتعودُ صحةُ فكرِنا وتبينُ
لتدبَّ في الشعبِ الممزَّقِ يقظةٌ في وهجها يتبخرُ الأفيونُ

ويوسف المسمار المرتكز على جذوة التاريخ والمبحر على أشرعة الشعر يدرك أن لا حياة لهذه الأمة من دون ثقافة مزدهرة، ذلك أن ما يميز هذه الأمة عبر تاريخها هو ثقافتها:

إنَّ الثقافةَ ميزةُ الإنسانِ مُجـ ـتمعاً بما تعني الحضارةُ تُوصَفُ
أبعادُها التاريخُ في آزالِهِ بشعاعِها نحو الألوهةِ تلهفُ

في صدرِ أعماق الحقائق وهجُها ... في كلِّ نفسٍ للسموِّ يرُفرفُ
مغناجة الألحانِ في أنغامها ... ببهاء أنوارِ الألوهةِ تعزفُ
مهيوبةُ الخطواتِ تمشي للعُلى ... بالناس ترفعهمْ ولا تتأففُ
فِعلُ الثقافةِ مستمرٌ في الصعو ... دِ على التقدّمِ والتفوّقِ يُشرفُ
من فاتهُ نورُ الثقافةِ خائبٌ ... من بحرِ أهوالِ التعاسةِ يغرفُ

وكثير من النقاد ممن يتحاملون على شعر المناسبات ويصفونه بالضعف والبعد عن الشعرية، أو أنه يخرج عن رسالة الشعر التي تتصف بالسيرورة، وبأنه شعر يتقوقع حول الحدث وينفعل بتشظياته، فيفقد أهميته بمرور الزمن وتوالي الأحداث، ولكن دراسة الأدب المهجري انطلاقاً من هذه الرؤية فيها تجنٍّ كبير، لأن شعراء المهجر شكّلت لهم الأحداث التي يمر بها وطنهم الأم جسوراً يربطون من خلالها ماضيهم مع حاضرهم، غربتهم مع وطنهم، آلامهم مع أوجاعه (إن كان الشعر رسالة الحياة فالحياة مجموعة مناسبات. والمناسبات هي الظروف المؤاتية لأداء رسالة الشعر. وإن شاعراً يقف موقف المادح فيخضع المناسبة للشعر ويتخلّص من المديح إلى أجواء تتسع للفن والعظة والتوجيه لهو أعظم من شاعر يطير بخياله إلى الماورائيات، بعيداً عن دنيا البشر، مهما حلق وأبدع..

كل شعر هو وليد مناسبة. ولكن ليست كل مناسبة تولد شعراً. فإن انبثق شعر المناسبة من عاطفة صادقة وفكر حر وخاطر عفوي فياض صلح لكل زمان ومكان).

وتبقى الميزة الأهم في شعر المسمار، أنه لم يقع في دائرة الإحباط، ولم يلفه التشاؤم والسوداوية، وبقي مؤمناً بقيامة الأمة، ذلك أنها أمة خلقت لتبقى، وتبقى لتبدع، ومهما طال سباتها، فلا بد للنور أن ينجلي، ويكاد يكون عناوين مجموعاته الشعرية دالاً على هذا اليقين بانبلاج نور الأمة ونهضتها.

ثالثاً: الالتزام بالقيم والأخلاق والعقل:

يبدو هذا الالتزام مرتبطاً بطبيعة التكوين الشخصي للشاعر فهو تربى على الأخلاق وعاش الالتزام في جوهره وسلوكه، وهو واحد من الشعراء الذين تحكمهم العقلانية في تصرفاتهم، لا يبحث عن نزوة هنا وإغواء هناك، هو شاعر رسالة بامتياز، موقفه الشخصي يتماهى مع موقفه السياسي.

وهو لا يكتفي بممارسة الفعل الأخلاقي، بل يعمل على أن يكون واعظاً له، وكثيراً ما اتخذ موقع المرشد والموجه له. والإنسان في نظره لا يخلده إلا عمله وأخلاقه وتفانيه في سبيل وطنه. جاء في قصيدة «درب الحياة».

هيهات بالقول يُبنى عزُّ مجتمعٍ فالعزُّ بالعزمِ والأفعالِ يرتسمُ
والفكرُ والعلمُ في الدنيا ممارسةٌ والعقلُ أيضاً، كذا الأخلاق والقيمُ

وشاعرنا يبحث عن المجد، مجد الأمة الذي لا يكون إلّا بالعلم والعمل ورفض الخنوع والتكاسل:

لا نصنع المجدَ مادامت شعائرنا الجهل والغش والتسويف والكسلُ
بل نصنع المجدَ إن صارت لنا همم آفاقها العلم والتحسين والعملُ

والمجد مرتبط بالوطن/ الأمة فلا مجد لفرد دون وطنه وأمته:

لا مجد للفردِ إلا مجدُ أمتهِ في ذلِّها الموتُ للأفرادِ والعَدَمُ
إن سوَّروها بأرواحٍ وأفئدةٍ سارت إلى النصر واختالتْ بها القِمَمُ

والوعي هو محور رؤيته لبناء الإنسان، فالمرء الواعي هو القادر على إحداث النهضة، وبناء المستقبل لاسيما إذا كان هذا الوعي مرتبطاً بانتماء حقيقي للوطن:

منْ مارسَ الوعيَّ إخلاصاً لأمتهِ واستعذبَ الموتَ في تاريخها عَلَمُ
تنأى المسافاتُ والأجيالُ تحملهُ سيفاً من النور تستقوي به الهِممُ

ويرى في قصيدة الراحل الحي أن الخلود الذي طالما شغل البشر منذ بداية الخلق لا يكون إلا بالتضحية في سبيل العزّ والانفتاح على الحياة والعالم:

ليس موتاً هلاكُ جسمٍ بعزٍّ إنما الموتُ في الحياةِ الهُروبُ
فانغلاقُ العقولِ ضيقٌ مميتٌ وانفتاحُ العقولِ عُمرٌ رحيبُ

ويستنكر الشاعر الناس الذين يلهثون وراء مكاسب العيش، والتذلل على عتبات الدنيا، فالحياة ما خُلقت إلا لاستشراف آفاق جديدة وفتح مسارات خلّاقة للإنسان.

ما وُجدنا لنعبدَ العيش، كلا، بل وُجدنا لتستقيمَ الدروبُ

والشاعر يستنكر في قصيدة «درب الحياة» كل مظاهر الجهل والتخلّف التي تغلغلت في مجتمعنا، ويدعو إلى العمل والإقدام لأنهما سر نجاح الأمة:

ما قيمةُ القولِ في شعبٍ يُمزّقُهُ … الجهلُ والحمقُ والأوهامُ والصَّمَمُ؟!

إنَّ الكلامَ هَـراءٌ حين ينقصُهُ … في القائلِ الفعلُ والإقدامُ والشَّممُ

ولم ينس الشاعر من توجيه التحية للشهداء، الذين رأى فيهم أشرف الناس وأكثرهم بذلاً وعطاءً، قال في قصيدة «حكمة الفداء»:

قد باركَ النَّصْرَ ربُّ الخلقِ فابْتَهجوا … يا أشرفَ الناسِ يا مَنْ للسَّما عَرَجوا

رَسَّخْتُمْ النَّصرَ باستشهادِكُمْ فسمَتْ … بالعزِّ تختالُ فوقَ الأنجُمِ المُهَجُ

والشاعر قدّس العقل لأنه يقود الإنسان إلى فعل الخير وممارسة الفضيلة، ولأنه يمنع الإنسان من ارتكاب الجرائم والموبقات، وجاء في قصيدة رسالة الفضيلة:

هيهات تنجحُ أمـةٌ إن لـمْ تثُرْ … بـمناقبٍ، وفضائلٍ، ومكارمِ

فالروحُ ما كانتْ للهوٍ باطلٍ … والعقلُ لمْ يُوهَبْ لفكرٍ مجرمِ

ووقفت عند قصيدة غزلية للشاعر بعنوان الحب المبدع في مجموعته قصائد للنهضة ومما جاء فيها:

وبدون أنْ تدري وأدري هزَّنا … وهجُ العناقِ ولمْ نكُنْ نتوقعُ

فسَرَتْ بجسمينا كهاربُ لهفةٍ … كالغيثِ تُنعشُ مثلَ جمرٍ تلسعُ

فشعرتُ أنّي في التألُّقِ مبحراً … في كلِّ نبضٍ رعشةٌ تتزوبعُ

كادَ العناقُ يُبيحُ ما نخفي وما … في الحُبِّ من لهَبٍ يُثيرُ ويُوجِعُ

فقد احتوتني واحتويتُ طُمُوحَها … نفسان في نفسٍ تُضيءُ وتسطعُ

وأحببت أن أورد هذه القصيدة لبيان قدرة الشاعر على صوغ قصيدة وجدانية جميلة، وبمفردات أكثر شعرية وتناغماً لو أنه خرج من حلبة السياسة بموهبته نحو آفاق إنسانية أوسع وأرحب.

وقد يكون اقتصار الشاعر في موضوعاته على الجوانب السياسية والوعظية نابعاً من:

- رغبته في تبني خطاب ملتزم، وذلك لشيوع مبادئ الالتزام لدى معظم الكتاب والمفكرين اليساريين والثوريين، ولاسيما عند شعراء الستينيات والسبعينيات.

- إن القضـــايا التـــي أحاطت بهذه الأمـــة جعلت معظم مبدعيها منغمســـين في همومها وآلامها ومنهم شاعرنا.

- التجربة النضـــالية الشخصية للشاعر وســـمت حياته وأدبه بهذه الصبغة، وجعلت منه شـــاعراً منبرياً يلجأ إلى موضـــوعة مباشرة دون مواربة، ودون صنعة أو تكلف، ودون أن يحمل قارئ شعره أي جهد في تتبع مراده.

وقد لقي شـــعره اهتمامـــاً من أدباء المهجـــر والوطن الأم، وحظي بإعجابهـــم حيناً لأنه كان مرتبطاً بقضـــايا وطنه التي حملوها بأفئدتهم وجوارحهم مثله تماماً، وأحياناً لأنه لامس الانتماء السياسي الواحد المشترك.

فكان لسان حالهم، وصوتهم المجلجل على منابر الخطابة وفي مهرجانات الشعر ومناسبات الجاليات العربية في البرازيل.

قال فيه الشـــاعر زكي قنصـــل بعد اطلاعه على مجموعته قصائد للنهضة: (لقد قرأتك متفرقاً في الصحف فكنت أطرب لسلاسة شعرك وأصالة معانيك، وها أنا أقرؤك الآن مجتمعاً فأزداد لك تقديراً وبك تعلقاً، وأراني مدفوعاً إلى إزجائك أخلص الشكر على ما أتحت لي من متعة روحية لا سبيل إلى إيفائها حقها إلا بلغة القلب) بوينس أيريس (١٩٧٩/٤/١٥م).

ومما قاله الأســـتاذ جودت نقولا الخوري (المقيم في البرازيل- كورتيبا) من مقالة نشرت في جريدة الأنباء في ســـان باولو: (إن معين الأدب والشـــعر المهجري لن ينضـــب طالما أن مجتمعنا قد حصـــل على احتضان شاعر جديد ملتزم يعالج في أشعاره كل ما تعانيه أمته من آلام ومحن، كما يعبّر عن تطلعاتنا ويوطد صلاتنا بأوطاننا وأحبائنا المقيمين. ولا يسعني إلاّ أن أهنئ مغتربينا بشاعرهم الجديد المتسلح بعقيدة والممتلئ إيماناً بشعبه وتراثه الحضاري الضخم).

أما الأديبة زهرة حمود فقد نظرت إلى شعره بعين الناقد فقالت في دراسة نقدية نشرتها في (٢٠١١/٤/١٨م): «وكأن المســـمار اســـتوطن الإيمان العقائدي، أو أن إيمانه استوطنه لا فرق، لذا نجده في شـــعره قد تلبس لبوس الأخلاق والمناقب والقيم الاجتماعية، فبدا وكأنه يخط الشـــعر الحكمي، وهو باب واســـع من أبواب الشـــعر العربي من الجاهلية حتى صـــدر الإسلام، وإن كان أهل الحداثة الشعرية يحتجون أحياناً على هذا النوع من القصائد، فإنها لا تزال تلاقي استساغة واستحساناً لدى شريحة لا بأس بها من القراء».

أما الشاعر **شفيق عبد الخالق** فقد وصفه شعراً فقال فيه في قصيدة نشرت في سان باولو بتاريخ (٢٠٠٠/٧/٣١م):

يا شاعر الإلهام شعركَ يزدري ... بالكون أحياناً، وحيناً يكفرُ
والشعر في دنيا الجمالِ حديقةٌ ... لولا شذى أطيابه لا تُزهرُ
وكذا النجوم الساطعات لطافة ... ومنارة، من روحه تتنورُ
لكَ رايةٌ في الشعر من خفقاتها ... فجرٌ يضم عُلاً، وفجرٌ ينشرُ

يوسف المسمار اسمٌ بارزٌ في شعر المهجر الجنوبي ولاسيما في البرازيل لأنه بقي مخلصاً للغته العربية الأم فكتب فيها، وعبّر بها عن مواقفه ورؤاه وأفكاره، وبقي مخلصاً للشكل الكلاسيكي في القصيدة العربية مبتعداً عن أشكال الكتابة الشعرية الأخرى، وحافظ على جودة لغته وإن أخذنا عليه عدم اتساع قاموسه اللغوي، كذلك عمل سفيراً للثقافة العربية في البرازيل فكان ناشطاً وفاعلاً في إقامة النشاطات والمؤتمرات المختلفة التي موضوعها الثقافة العربية ومفكروها ومبدعوها ولاسيما في سورية ولبنان.

المصادر

- المسمار، يوسف:

(١)- خواطر من الحياة وللحياة، شعر، مطبعة فورتوناتو، كوربيليا، بارانا، البرازيل، آذار، ٢٠١٧م.

(٢)- قصائد للنهضة، ط ٢، مطبعة فورتوناتو، كوربيليا، بارانا، البرازيل، ٢٠١٥م.

(٣)- قصائد مضيئة، ط٢، مطبعة فورتوناتو، كوربيليا، بارانا، البرازيل، ٢٠١٠م.

(٤)- قطرات من نور، مطابع ألف باء، الأديب، دمشق، ٢٠٠٧م.

(٥)- لهب النهضة، مطبعة الأنباء، سان باولو، البرازيل، ١٩٧٨م.

(٦)- نوافير نور، مطبعة فورتوناتو، كوربيليا، بارانا، البرازيل، ٢٠١٢م.

المراجع

(١)- الدقاق، عمر، شعراء العصبة الأندلسية في المهجر،ط ١، مكتبة دار الشرق، شارع سورية، بيروت، ١٩٧٣م.

(٢)- صيدح، جورج، أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ط٢، إصدار جامعة الدول العربية، بيروت، ١٩٥٧م.